صدمات السادات وغياب الوعى بالتاريخ

د. رءوف عباس

الأربعاء، 19 نوفمبر 1997

كان السادات يتباهى دائماً فى أحاديثه أمام الكاميرات بما أسماه سياسة الصدمات الكهربائية وأعتبرت جوقة المنافقين من مطلقى البخور لكل من تربع على كرسى السلطة، صدمات السادات إبداعاً عبقرياً فى السياسة الدولية، ولازال بعضهم يردد ذلك دون استحياء، كلما احتفلنا بذكرى حرب أكتوبر، أو حلت ذكرى الزيارة المشئومة للقدس.. ولعبت آلة الإعلام الغربى المهولة دوراً مهماً فى إلقاء الضوء على هذا الجانب الأثير إلى قلب السادات عند تكوين صورته أمام الرأى العام العالمى.

ويحمل معنى الصدمات الذى قصده السادات، تجاوز التقليدى المألوف، وطرح علاج جديد فيه قدر كبير من الجرأة والإقدام.. وقدر أكبر من المغامرة، يقوم على توجه جديد حسمه السادات بينه وبين نفسه، أو بينه وبين حفنة من أصفيائه هو إدماج مصر فى النظام الأمنى الغربى، وجعلها مركزاً رئيسياً لذلك النظام فى منطقة الشرق الأوسط. وقدر السادات أن ذلك التوجه يحقق هدف إنهاء الدور الإسرائيلى فى إستراتيجية الأمن الغربى بتحول هذا الدور إلى مصر بعد إرتمائها فى أحضان أمريكا، كما يحل مشاكل مصر الإقتصادية عندما تفتح خزائن الغرب أبوابها بإشارة من أمريكا ابتهاجاً بهذا التوجه العبقرى، وتنساب منها أموال المعونات والقروض إلى مصر، وتتحقق السعادة للجميع، فتجد أمريكا لنفسها حليفاً كبيراً طالما سعت إلى جره لنظام أمنها الإقليمى فى الشرق الأوسط، فخاب مسعاها، وتحطمت جهودها على صخرة الإستقلال الوطنى والتوجه القومى الذى مثل إطار ولب السياسة المصرية منذ قيام ثورة يوليو 1952 حتى وصول السادات إلى السلطة، ويشفى الاقتصاد المصرى من وعكته فيعم الرخاء الذى يعد شرطاً لازماً لإقناع الجماهير بميزة التحول عن خط الإستقلال الوطنى والتوجه القومى إلى خط التبعية والتوجه الإقليمى.

ولا بأس عند السادات من الإعتراف بالكيان الصهيونى وإحتواء ما يثيره الفلسطينيون من (شغب) فى المنطقة بإلقاء عظمة معروقة لهم يتلهون بها فى صورة شكل من أدنى أشكال الحكم الذاتى.

ورغم إدعاء أنور السادات –فى أكثر من مناسبة- بإستيعاب دروس التاريخ، وزعم جوقة المنافقين بإمتلاكه لناصية الوعى التاريخى التى جعلته يستخدم سياسة الصدمات الكهربائية، فإن توجهه السياسى الجديد ينم عن غياب تام للوعى التاريخى عنده، وقراءة خاطئة لدروس التاريخ.

لقد كانت فلسطين دائماً مسألة أمن قومى مصرى، حرص حكام مصر منذ الفراعنة حتى جمال عبدالناصر على تأمين مصر من خلال السعى لتحقيق الأهداف القومية بالعمل على إبقاء فلسطين خالية من أى نفوذ معادى لمصر كما كان البحر الأحمر يكمل مع فلسطين خط الدفاع الشرقى عن أمن مصر منذ الفراعنة حتى حرب أكتوبر 1973. لذلك كان السلام الساداتى يعنى القبول بوجود دولة عبرية على أرض فلسطين يناقض وجودها مصالح الأمن القومى المصرى ويعرض تلك المصالح للخطر، كما يجعلها شريكاً لمصر فى البحر الأحمر ثم قوة مهيمنة عليه، ويخرج مصر من مجالها الحيوى. ويقلل فاعلية دورها الإقليمى. ولعله كان يعتقد أن الدور الجديد لمصر كقاعدة للأمن الغربى فى المنطقة سوف يحل كل تلك التناقضات، لأن ذلك سيؤدى إلى انكماش الدور الإسرائيلى وتحجيمه، فتظل مصر نشطة فى مجالها الحيوى ولكن كحارس خاص للمصالح الغربية عامة ومصالح الولايات المتحدة خاصة.

وهنا أيضاً دليل على غياب الوعى التاريخى عند السادات، فقد افترض أن أمريكا لازالت عند حرصها القديم الذى عبرت عنه فى مطلع الخمسينيات لجعل مصر قاعدة نظامها الدفاعى للشرق الأوسط، فقد تم ذلك فى سياق سخونة الحرب الباردة، وقيام أمريكا بترتيب أوضاعها فى منطقة الشرق الأوسط لتخلف بريطانيا فيها، وهى ظروف لم يعد لها وجود فى أواخر السبعينيات، إذ أستطاعت أمريكا أن تكون لنفسها مجموعة من الأنظمة العميلة (أو الحليفة) بالمنطقة، وأن ترسم استراتيجيتها بعد 1956 على أساس أن تكون إسرائيل قاعدة الدفاع عن مصالحها فى المنطقة، ومن ثم حرصت على إستثمار تنازلات السادات لصالح دعم الدور الإسرائيلى فى المنطقة وتحويل إسرائيل إلى قوة إقليمية فاعلة تطرح بديلاً لمصر.

ولعل ذلك يفسر ما نشهده اليوم من قيام أمريكا بلعب دور المتفرج لما تقوم به إسرائيل من تدعيم لموقعها الإقليمى من خلال إبتلاع ما تبقى من أرض فلسطين، ونقض ما تم توقيعه من اتفاقات مع الاختراق المتواصل للمحيط العربى، وما

أسفرت عنه سياسة صدمات السادات من جعل الإستقلال الوطنى من ذكريات الماضى، والهيمنة الأمريكيةواقعاً مريراً نعيشه ونلمس آثاره السلبية.

والغريب أن السادات لم يع درس التاريخ الجارى الذى كانشاهداً عليه، ونعنى بذلك ما حدث فى إيران التى كان نظامها السياسىمكوناً حيوياً من مكونات سياساتها الدفاعية فى الشرق الأوسط، وركيزة للوجود الأمريكى فى المنطقة وهو درس له مغزاه، فحتى لو كانت أمريكا على إستعداد لتحويل إستراتيجيتها بالشكل الذى يجعل مصر قاعدة الدفاع عن مصالحها، تجعلها تجربة إيران فى وضع التراجع بعدما شهدت نتيجة الإعتماد على نظام عميل لا يستند إلى تأييد شعبى، وهو ماكان الوضع فى مصر بعدما ظهرت عبقرية السادات من خلال (صدماته) وإن ظن هو ومنافقوه غير ذلك.

ثم هناك درس ما فعلته أمريكا مع الشاه بعد سقوطه وتخلصها منه كما يتم التخلص من النفايات، وهو درس لم يستطيع السادات إستيعابهأيضاً .